

التنوير وثقافة العولمة

د. عاطف العراقي •



قد لا أكون مبالغا في القول بأن البحث في موضوع العولمة وما يرتبط بها من قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية، يعد من البحوث الهامة التي تشغل دول العالم الآن وستظل إلى فترات طويلة محور الحديث ليس في الدول المتقدمة فحسب، بل في الدول النامية. إن البحث في موضوع العولمة وقضاياها يثير نقاط خلاف رئيسية وجوهرية، وقد نجد من يسعى بكل قوته إلى تأييد هذه الثقافة بكل أبعادها وجوانبها وذلك في تصور من جانبه نحو عالم أفضل، وقد نجد على العكس من الفريق الأول من يحارب بلا هوادة فتح النوافذ على هذه الثقافة بكل أبعادها واتجاهاتها وتطبيقاتها. وقد نجد أيضاً من يذكر عديداً من التحفظات على هذه الثقافة.

وإذا كان البحث في هذه القضية، قضية العولمة يرتبط كما أشرنا منذ قليل بعدد من القضايا والأفكار في المجال الاقتصادي والسياسي وغيرهما من مجالات، فإننا نود من جانبنا دراسة هذه القضية من خلال منظور التنوير، إذ إننا نعتقد من جانبنا أن

التركيز على الجانب الفكري من هذه الثقافة، ثقافة العولمة، وخاصة بالنسبة للهوية الثقافية، لا بد وأن يرتبط ارتباطاً رئيسياً بالقضية الكبرى، قضية التنوير إنها قضية مصير. وكما قال شكسبير: أن أكون أو لا أكون، ذلك هو السؤال.

(هـ) أستاذ الفلسفة العربية بأداب القاهرة.

الفكرية البناءة، التي يجب أن نتعلم منها القدرة على اتخاذ المواقف ولا يكون ذلك بإمكاننا إلا إذا أقمنا الجسور - كما قلت - بين أبناء الدول العربية كلها، وأقمنا الحوار الفكري بين مثقفي الأمة العربية، ومثقفى بقية بلدان العالم من مشرق الأرض إلى مغربها. هذا هو التنوير فى علاقته بالعولة.

إن المثقف كما ينبغي أن يكون، هو الذى يهتم اهتماما بالغا بكل قضايا التنوير، ولا يمكن أن ننتظر حلولاً إيجابية لكل القضايا التي نبحث فيها. وسواء أكانت قضايا فكرية، أم كانت قضايا سياسية، أم كانت قضايا اجتماعية إلا من خلال التنوير. فإن الفرد التنويرى هو الذى تורقه هموم الأمة العربية بحيث تصبح حياته الفكرية هى القضايا المصيرية لعالمنا العربى فلا يحيا إلا بهذه القضايا ولا يعيش إلا من أجل هذه القضايا ولا يتنفس إلا هواء هذه القضايا .

هذا هو المثقف فى رؤيته المستقبلية، وأقول بالرؤية المستقبلية لأننا للأسف الشديد سواء فى الماضى؛ الماضى القريب على الأقل، وفى الحاضر أيضا بكل تأكيد لا نجد رؤية واضحة، رؤية محددة المعالم، بل رؤية كلها ظلام فى ظلام، رؤية يسودها الضباب الكثيف. ودعونا نتكلم بصراحة وموضوعية لأننا أمام قضية مصير، قضية تحديد لهويتنا، قضية أن نكون أو لا نكون، ولنبتعد تماما عن التفاؤل الساذج والقول بأن كل شيء تمام.. لقد أسرفنا فى التفاؤل وما فيه من سذاجة، وأدى هذا كله إلى أن أصبحنا

إننا فى عالم متغير عالم يسوده الكثير من التيارات. عالم ليس فيه مكان للضعيف فى مجال السياسة والاقتصاد والفكر، ومن هنا فلا بد أن نفتح على هذه الثقافة، فقد أصبح العالم قرية صغيرة. إنها ثقافة العولة، ولا يصح أن نخشى من تلك الثقافة بل يجب أن نتعامل معها ونأخذ فى حوار مع قضاياها، وهى قضايا بالغة الأهمية. أما أن نتوقع حول أنفسنا، فإن هذا لا يعد حلاً بأية صورة من الصور وصاحب المعدة القوية لا يخشى من تناول أى نوع من أنواع الأطعمة.

إننا الآن فى عصر تتصارع فيه القوى المختلفة، وإذا لم نبادر بتحديد هويتنا الثقافية العربية من خلال قضايا العولة، ونبادر أيضا باتخاذ المواقف من جانبنا، فلن يكون لنا وجود فى المستقبل، لن تكون لنا حياة، كما ينبغي أن تكون الحياة. ستصبح فى خبر كان؛ إن صح هذا التعبير وسيأتى يوم علينا يتحدث فيه العالم عنا؛ كما يتحدث عن الهنود الحمر أو كما يتحدث عن شعوب أصبحت منقرضة وزالت عن الوجود.

وغير خاف علينا أننا الآن فى حالة فقدان الوعى. فقدان الاتزان، أو مرحلة انعدام الوزن، إننا الآن فى حالة غريبة من الغيبوبة والعالم يتحرك من حولنا حركة سريعة، حركة بغير حدود، إننا فى الوقت الذى نصعد فيه إلى الهاوية، ويكون الحوار أقرب إلى إثارة الخلافات اللفظية الشككية، بل أقرب إلى ترثرة النساء، نجد الدول المتقدمة، وبخاصة الدول الغربية تبادر إلى اتخاذ المواقف

العرب من خلال رؤية تنويرية في البحث عن أفضل حل فكري لنا نحن أبناء الوطن العربي، رؤية تتخطى الخلافات الزائلة الطارئة، ويحيث تضع المستقبل أمامها دائماً. إن أكثر المثقفين العرب - وللأسف الشديد - يدورون في حلقات مفرغة ويلجئون إلى منطق التبرير، وهو منطق زائف، لأنه يؤدي إلى الدفاع عن سلبيات الماضي وسلبيات الحاضر

وما أكثرها من سلبيات. علينا أن نعتقد بأن الفكر التنويري يوجه التطبيقات السياسية والعكس غير صحيح، وهذا الاعتقاد يؤدي إلى بث الثقة في نفوس المثقفين العرب، وبوله بغير فكر تنويري يقوم على أسس فكر العولمة هي تماماً كجسد بلا دماغ، وإذا خلا الجسد من الدماغ فإنه سيكون أقل مرتبة من الحيوانات الضالة، نعم ينبغي علينا أن نستوعب هذا الدرس أو هذا المبدأ جيداً وإلا ستلحقنا اللعنة في كل زمان وكل مكان.

الرؤية المستقبلية - فيما نراها من جانبنا - تقوم على الانفتاح على كل الأفكار والتيارات. وبعد ذلك فلنأخذ منها ما نأخذ ولنرفض منها ما نرفض، أما أن نظل في حالة تقوقع حول أنفسنا بحجة التراث تارة وبحجة أن الغرب سيقوم بابتلاعنا تارة أخرى، فإنها تعد من الحجج الزائفة وسنظل جامدين عندها دون أمل في أدنى تقدم، إن التراث الماضي قد صنعه مفكرون مثلاً صنعه أفراد بشر كانوا معرضين للوقوع في الأخطاء، فلماذا إذن نقف عند محاولاتهم، نبكي على الأخطاء فلماذا الخوف إذن من ثقافة العولمة؟ هل من المعقول أن يكون

في وضع لا نحسد عليه، وأصبح أكثر مثقفينا في واد، وقضايا الأمة العربية في واد آخر، أصبح حديثهم عن قضايا الأمة العربية حديثاً يثير القلق والغثيان حديثاً سطحيًا، تماماً كما يتحدث السائح عن بلدة من البلدان التي زارها وبقي فيها ساعة من الزمان، إنه حديث سطحي لأنه لا يقوم على رؤية تحليلية دقيقة.

لقد أدت بنا الرؤية الظلامية، الرؤية الضبابية التي يسعى إليها أنصار الاتجاهات التقليدية، إلى عديد من التصورات الخاطئة والتي تقوم على المبالغة، والمناداة بأن الحل إنما يتمثل في الرجوع إلى الماضي السعيد، ماضى التراث وبما في بعضه من أخطاء ومغالطات.

كما نجد فكراً تنويرياً في بعض بلدان عالمنا العربي في منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟ نجد نوعاً من الردة... أو التراجع عن المكاسب التنويرية في عديد من المجالات، سواء كانت سياسية أو فكرية أو اجتماعية، نجد تراجعاً في مجال حرية الفرد واتجاهاً نحو نوع من الديكتاتوريات الفكرية الرجعية.

هل من المعقول أن ننتظر حلاً لمشكلاتنا الفكرية والسياسية؟ في الوقت الذي نعلن فيه الهجوم على ثقافة العولمة، في الوقت الذي نشجع فيه جهتنا، في محاولة الإجابة على أسئلة عفا عليها الزمن، أسئلة فردية شخصية جزئية، لماذا لا يتجاوز المثقفون

فكر وإبداع

ولا يخفى علينا أن المناخ الفكرى السائد في أكثر بلداننا العربية يعد مناخا غير تنويرى مناخا غير مؤهل للثقافة الجديدة، ثقافة العولة، وصاحب الرؤية الملتزمة والجادة. صاحب الأيدولوجية التقدمية قد يجد صعوبة بالغة في التعبير عن رأيه أو موقفه، ومن هنا يشعر بالاغتراب عن الواقع، ولكن هذا لا يعنى أن نطلب منه وهو فى هذه الحالة، أن تدور أفكاره بينه وبين نفسه فحسب، بحيث تكون حواراً مع الذات، بل أن يحاول بكل ما يملك من طاقة ذهنية بناءة عن طريق تعاطفه مع غيره من أصحاب الفكر التقدمى التجديدى البناء، نشر أفكاره والدفاع عنها سواء ما تعلق منها بدول العالم الثالث وما يحدث فيه من تغيرات، أو ما تعلق منها بالصلة بين بلدان العالم الثالث، والقوى الكبرى العالمية .

والبحث عن أيديولوجية فكرية عربية مستقبلية، لا يمكن أن يتم إلا بالتعاون بين المفكرين والمثقفين من خلال إيمانهم بالأسس الكبرى والقيم البناءة فى ثقافة العولة هذا التعاون الذى نجده فى مجتمع النمل ولا نجده فى مجتمع الصراصير، والأليق بنا كمفكرين أن نرتضى لأنفسنا التعاون وننبذ التقاتل والخلاف.

إن مشروعا حضاريا للأمة العربية لا يمكن أن يتحقق إلا بصدق المفكر مع نفسه وبحيث لا تحركه المصالح المادية، كما ينبغى أن يكون متفتح النظرة واسع الأفق. وهل ننكر أن موقف بعض دول الغرب مع هذه

تصورنا للمستقبل محكوماً بكتب التراث الصفرى محكوماً بأفكار مجموعة من المفكرين القدامى. إن كتب التراث إذا كنا نجد فيها بعض الأفكار البناءة الممتازة والتي تفيدنا فى حياتنا المعاصرة، إلا أننا نجد فى بعضها آلاف الأخطاء بل آلاف الخرافات، إن كتب التراث كلها فى المجالات العلمية لن تساعدنا على اختراع أبسط نوع من أنواع المخترعات البشرية وزماننا الآن غير زمانهم، فنحن بشر وهم مثلنا بشر فلماذا إذن يصر بعضنا على الوقوف؟ عندهم فقط ، فلنأخذ إذن من التراث ما نأخذ ولكن ما نأخذه ينبغى ألا يكون عقبة فى طريق تقدمنا وازدهارنا نحن أبناء الأمة العربية الحديثة. لماذا لا نفتح على الغرب فى رؤيتنا المستقبلية، لماذا نصر على رفض كل غربى وشن الهجوم على الغرب. هل ننتظر من الغرب أن يتأخر مثلاً. إن واجبنا أن نسعى إلى أن نتقدم مثله لا أن ندعوه إلى أن يتأخر هو مثلاً، إنها سنة لله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً. إن هذه الأفكار التقدمية الجديدة نأخذها من ثقافة العولة، الثقافة المستقبلية .

هذه معالم رؤية مستقبلية تنويرية نقدمها من خلال إدراكنا للقيم الإيجابية لثقافة العولة .. معالم عامة وكبرى تجعل الهدف من التنوير دك أرض التقليد دكا، وتقيم أساس البناء على العقل والعقل وحده والعقل كما نعلم أشرف ما خلقه الله فينا نحن بنى الإنسان.

بكل قوتها وابتداء من عصر النهضة نحو تحقيق مبدأ التنوير فوجدنا ثقافة أوروبية جديدة، تختلف في أساسها ومنهجها عن ثقافة العصور الوسطى .

والسعى نحو نظام ثقافي عربي جديد لا يعد شيئاً صعباً أو مستحيل التحقيق، إذ نجد العديد من الأفكار التي دعا إليها مفكرون كبار في العصر الحديث على امتداد ساحة العالم العربي من مشرقه إلى مغربه، واللهم هو الاستفادة من أفكارهم وجعلها واقعاً حياً نعيشه ونتعيش معه. وهل يمكن أن نقلل من أفكار تنويرية غاية في الأهمية نجدها عند رفاة الطهطاوي، وأحمد لطفي السيد، وقاسم أمين، وسلامة موسى، وطه حسين، وزكي نجيب محمود في مصر. وعند ملك بن نبي في الجزائر، وعبد الرحمن الكواكبي في سوريا.....، وغيرهم من مفكرين كبار كانت لهم رؤيتهم المستقبلية.

وإذا كنا نعيش الآن في عالم جديد، عالم به العديد من المتغيرات، عالم أصبح بفضل التطورات العلمية الحديثة قرية صغيرة، فلا بد إذن من تغيير أفكارنا تغييراً جذرياً لابد من ثورة فكرية تخلق إنساناً غربياً جديداً، وتوجد نظاماً ثقافياً عربياً جديداً، وإذا لم نفعل ذلك فسنكون في وادٍ والعالم المتقدم، العالم الأوربي بصفة خاصة في وادٍ آخر. سنكون كمن يتحدث على موجه غير الموجه التي يستخدمها الطرف الآخر.

لا بد أن نقضى على الفصل الموجود في

أكثر بلداننا العربية، بين ما يسمى بالتعليم

الدولة العربية أو تلك قد يكون مفيداً وفي صالحها في الوقت الذي تجد فيه الخطر، بل العدوان من جارتها العربية، هل ننكر سيادة الفكر الرجعي الآن بحيث تكون له أدواته وأمواله وصحفه ومجلاته، هل ننكر أن أكثر بلداننا العربية تعطى أقل قدر من المساحة للرأى في مقابل المساحة الواسعة الضخمة التي تعطى للرأى الرجعي التبريري؟ إن هذا نجده في مجال السياسة وفي مجال الفكر أيضاً، إن تأسيس مشروع حضارى للأمة العربية ينبغي أن يكون قائماً على العقل، والعقل فقط، ينبغي أن يكون مؤسساً على الفكر التجديدي العلمى البناء ويحيث نطرد تماماً كل فكر رجعي، نحذف تماماً أى فكر لا معقول أى فكر ميت يعبر عن التخلف لا التقدم، يعبر عن الصعود إلى الهاوية لا السير إلى الأمام.

قد لا أكون مبالغاً إذن إذا قلت: إننا الآن في أمس الحاجة الى السعى نحو التنوير الثقافى، التنوير، التنوير الذى يقوم على الانفتاح على ثقافة العولمة، التنوير الذى يقوم على تقديس العقل والإيمان بأن الثقافة الخالدة، إنما هي الثقافة الأساسية التى تتخطى حدود الزمان والمكان بحيث تتحرر من العادات والتقاليد الرجعية وتنطلق ساعية إلى تحقيق سعادة الإنسان، بما تتضمن من آداب وعلوم وفنون سامية رفيعة وعن طريق التنوير نستطيع إرساء نظام ثقافى عربى جديد .

إن أوروبا لم تتقدم إلا عن طريق السعى

بالتنوير، يمثل النوافذ على كل التيارات الأدبية والفكرية ولا يوجد مبرر للحساسية من الشقافات الأخرى. إن هذه الثقافات لا يخشاها إلا ضعاف الناس. وقد انفتح العرب منذ عدة قرون وفي أيام العصر العباسي على الثقافات الوافدة وحدث الامتزاج أو الاقتتران السعيد بين ثقافة داخلية وثقافة وافدة، ولم يقل أحد بأن هذه الثقافات قد أدت إلى إلغاء شخصية الإنسان العربي .

إن عالمنا العربي يملك طاقة اقتصادية هائلة .. ومن واجبنا تسخير تلك الطاقة وتوجيهها بحيث تحقق نظاماً ثقافياً في المقام الأول، فالثقافة هي الأساس وما يمكن أن يؤدي إلى الترابط بين الشعوب العربية، إنما يكون أساساً في نوع من الوحدة الثقافية وليننا نخصص جزءاً كبيراً من دخل البترول في إرساء دعائم التنوير الفكري والثقافي، والتنوير القائم على ثقافة العولة، وبحيث نتجنب تماماً كل الأفكار الرجعية المتطرفة، وهل يستطيع أن يتنفس الإنسان إلا في الهواء المتجدد؟ إن الفكر الذي لا يتخذ من التنوير أساساً له يعد فكراً ميتاً يصيب الإنسان بالاختناق ونستطيع أن نتصور نظاماً ثقافياً عربياً جديداً إذا لم يأخذ من تراثنا إلا ما يؤدي إلى نهضتنا، وبحيث لا يكون معوقاً لمسيرتنا الإنسانية. نستطيع أن نسعى إلى النظام الجديد إذا اعتقدنا بأن النزعة الإنسانية التنويرية هي التي يجب أن تكون سائدة في مدارسنا وجامعاتنا ووسائل إعلامنا وكتابات مفكرينا. وكم ارتبط النور بالتقدم والسير إلى الأمام، وارتبط الظلام

الديني، والتعليم المدني الإنساني، لابد من التنبيه إلى الانغلاق الفكري الذي نجده عند أناس يتحدثون عما يسمونه بالغزو الثقافي، إننا إذا وجدنا عالماً متقدماً كالعالم الأوروبي فهل نطلب منه أن يتأخر مثلاً، أم أنه من الضروري أن نفعل مثل ما فعل، ونتقدم مثله؟ هل من المعقول وقد وصلنا إلى أواخر القرن العشرين وبدأنا نستعد للدخول في قرن جديد، أن نقول بأنه لا بد من الوقوف عند كتب التراث وبحيث نقوم بحفظها ونردد ما فيها دون وعي. هل يصح أن يقوم نفر منا بالهجوم على منجزات الحضارة الغربية في الوقت الذي لا يمكن فيه الاستغناء عن هذه المنجزات الكبرى. كيف أتفاعل مع العالم والتحدث عن نظام ثقافي عربي جديد في الوقت الذي أتناقض فيه مع نفسي، وأقع في نوع من الازدواجية حين أهاجم الحضارة الحديثة الأوربية وأكون في نفس الوقت ساعياً إلى الاستفادة من منجزاتها.

إن نظاماً ثقافياً جديداً لا يمكن أن يتحقق إلا بالتأكيد على أهمية العلم، والقضاء على الخرافات التي تعوق من مسيرتنا العلمية، والإيمان بأن العلم يمثل مجتمع المستقبل.

إن هذه أفكار رئيسية نتعلمها من أسس ثقافة العولة .

فنحن إذن بين طريقين : طريق يمثل الظلام، (الطريق المسدود). وطريق يمثل النور والضياء وحتى نوجد نظاماً ثقافياً عربياً جديداً فلا مفر من الطريق الذي يمثل الإيمان

مذاهب أدبية وفكرية فى حين أن الواقع الموضوعى يكشف لنا أن تلك المذاهب فى واد والفكر فى واد آخر. إنها مذاهب لا تستند إلى أساس فكرى أيديولوجى، ولا تقوم بنقد الواقع أو التعبير عنه ... تعبيراً صادقاً .. ومن هنا كان فكرنا فكراً مسطحاً، فكراً أجوف. انظروا إلى الفكر الأوربى على سبيل المثال وقارنوا بينه وبين ما نطلق عليه فكراً عربياً على سبيل التجاوز، وستجدون الفرق الكبير بين فكر دقيق يقوم على أرض صلبة وبين فكر فضفاض ونقص به الفكر العربى فى كثير من جوانبه وأبعاده ومجالاته.

إننا نفتعل الكثير من المعارك ونطلق عليها معارك فكرية فى الوقت الذى تدور حول هذه المعارك قضايا زائفة خيالية. كما نتحدث عن الغول والعفريت، وأصبح من الأشياء الشائعة أن يتحدث كل واحد منا عن مشروع له حول الفكر العربى ثم نجد هذا المشروع خيالياً فى خيال وليس له معالم محددة. ولا يستند إلى أى نوع من أنواع الصدق.

ويقينى أنه لولا الإعلامية حول العديد من الكتب والمقالات لقلنا بصدق إننا لا نجد عندنا فكراً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة بل نجد أكثر بضاعتنا الفكرية بضاعة متواضعة لا صلة لها بالواقع تماماً كمن يبحث عن قطرة سوداء فى الظلام أو مثل دون كيشوت الذى يحارب طواحين الهواء.

إننا نعيش الآن فى عصر يعد معبراً عن الظلام. وإذا تحدثنا عن صعود فكرى فإنه يعد للأسف الشديد صعوداً إلى الهاوية. فإين

بالتأخر والرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية .

ولن يصبح لنا دورنا الحيوى النشط والرائد فى العالم الذى نعيش فيه إلا إذا حددنا دور الثقافة فى مجتمعنا العربى. وقلنا إن المثقف وهو الكائن الاجتماعى لابد أن تكون أفكاره مؤدية إلى سعادة وتقديم مجتمعه. ولن يتقدم مجتمعنا العربى إلا بأن يكون رائدنا هو العقل، وطريقنا هو طريق التنوير وخصائص ثقافتنا تمثل فى البعد الأمامى أساساً. عن طريق هذا كله يمكن تحقيق نظام ثقافى عربى جديد نفاخر ونتفاخر به بين دول العالم من مشرقها إلى مغربها بحيث نقول : هذه بضاعتنا الثقافية التنويرية والتى تتخطى حدود الزمان والمكان.. البضاعة التنويرية التى إذا كانت قد استعادت بعض جذورها من الماضى، إلا أنها لا تقف عنده وبحيث يكون حالها كمن يركب على الأطلال بل تركز على الحاضر وتنطلق منه إلى المستقبل.

أقول وأكرر القول :إن فكرنا العربى بوجه عام يعد معبراً عن حالات من الضياع والظلام والموت. إنه فكر يخلو من أيديولوجية معينة، ومن هنا نرى أكثره معبراً عن مجموعة من الكلمات المتقاطعة التى قد لا تفهم وبالتالي لا يمكن إدراكها من جانب القراء لها.

نقول هذا ونحن فى اعتبارنا ضرورة استبعاد الشعارات البراقة الزائفة التى يزعم لنا أصحابها أنهم يقدمون لها من خلال

هو تقديس العقل، لابد أن تكون محورها السعى إلى التنوير بكل قوة وجهد لابد أن تكون قضيتها الكبرى تغيير الواقع بحثاً عن الأفضل وليس مجرد تفسير الواقع أو التبرير، وإذا اقتصر الفرد منا على مجرد التفسير أو التنوير فإنه يكون مقلداً وليس، مبدعاً أو مجدداً، سيكون فكرة خالياً من الأيديولوجية ولا أساس له، ومن المؤسف له قيام أناس بمجرد التنوير أو الدفاع أناس تحسبهم من المفكرين وما هم بمفكرين بل أشباه مفكرين، لأنهم يعبرون عن فكر ميت مزيف. وتغيير الواقع فيما نرى من جانبنا لابد وأن يعتمد على أساس قوى، هذا الأساس ينظر للعالم على أنه قرية صغيرة إنه أساس العولة أولاً وقبل كل شيء.

إن قضية التنوير في صلتها بثقافة العولة تعد قضية مصيرية إنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالبحث عن أيديولوجية غربية ولا بقاء لشعب من الشعوب إلا عن طريق السعى نحو النور والتنوير عن طريق السير نحو البحث عن أيديولوجية تحدد هويته الثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية.

ونود أن نشير إلى أن الحديث عن عوامل تدعيم الإبداع والمشكلات التي تواجه الإبداع يرتبط ارتباطاً مباشراً بمشكلة التنوير وقضاياها، ودليلاً على ذلك أن العوامل التي تؤدي إلى عرقلة الإبداع إذا كانت توجد بكثرة في الدول النامية بوجه عام، الدول التي لا نجد فيها تنويراً مطلقاً شاملاً، فإنها لا توجد بنفس الدرجة في الدول الأوروبية

الأيديولوجية إذن؟ أين الضمير العلمي؟ أين الفكر التنويري الحضاري؟ إننا إذا وجدنا شعوباً متقدمة فكراً وحضارياً فإن الموقف منها يجب أن يتمثل في أن ننظر بموضوعية في إنجازها الفكري ولا يصح أن نقوم بالهجوم عليها تحت مقولة الغزو الثقافي أو الهجوم على الحضارة الوافدة، فالتأخر كما سبق أن قلنا يجب أن يلحق بالمتقدم ولا يصح أن أطلب من المتقدم تحت شعار المشاركة الوجدانية أن يتأخر مثلي. لقد أدرك ذلك مفكرون كبار ابتداء من رفاة الطهطاوي، وأحمد لطفى السيد، وطه حسين، وسلامة موسى، وتوفيق الحكيم، وزكى نجيب محمود، ولكننا للأسف الشديد لم نستفد من الدروس التي ركزوا حياتهم لغرسها في نفوسنا. ولو كنا قد استفدنا من دروسهم لما كنا قد وجدنا الآن تلك الحروب الشعواء ضد العولة وثقافة العولة.

ألا يوجد دليل على تخلفنا الفكري أبلغ من القول بأننا نجد أفكاراً تنويرية تحارب الآن ولم تكن تحارب منذ عدة قرون كالعصر العباسي. ألا يعد هذا دليلاً على أننا نسير إلى الخلف ولا نمشي إلى الأمام؟

فنحن إذا تمسكنا بمجرد التردد فإننا سنكون أصحاب توكيلات فكرية، تماماً كالتوكيلات التجارية، فمن يقوم ببيع سلعة أجنبية يكون دوره مجرد البيع وليس المشاركة أو الاجتماع بالنسبة لهذه السلعة أو تلك.

إننا إذا أردنا لفكرنا العربي أيديولوجية فإن تلك الأيديولوجية لابد أن يكون شعارها

المتقدمة .

والعوامل التي تؤدي إلى عرقلة الإبداع ترتبط بمجالات كثيرة من بينها التعليم والثقافة والعلم والتكنولوجيا .

فمن الأمور التي تسترعى الانتباه أننا في الدول النامية بوجه عام نعد أصحاب توكيلات فكرية، وهذا إن دلنا على شيء فإنما يدلنا على أنه لا نصيب لنا في العملية الإبداعية، فصاحب التدليل الفكرى إنما يكون مجرد جواز مرور لأراء وتجارب السابقين، نون جهد إبداعى من جانبه .

إننا فى عصر ثورة المعلومات وثورة الكمبيوتر والأقمار الصناعية، فهل من المعقول أن نتحدث عن ظاهرة خيالية، هى ظاهرة الغزو الفكرى، وذلك فى الوقت الذى أصبح العالم فيه قرية صغيرة، أعتقد أننا إذا قلنا بما يسمى الغزو الفكرى أو الثقافى فإن معنى ذلك أننا سنقضى تماما على أى أمل فى التقدم نحو الإبداع . فالإبداع لا يمكن أن يتحقق إلا فى جو الحرية والانفتاح على أفكار الآخرين فى دول العالم من مشرقه إلى مغربه . الإبداع يرتبط بالنور والضياء ومعوقات الإبداع لا يمكن أن تحيا إلا فى جو القيود والظلام . يعنى أننا إذا أردنا إيجاد القيادات المبدعة فلا بد أولا من الإيمان بأن قضية التنوير (فى صلتها بالعولة) تعد أُلزم القضايا لنا تماما كحاجتنا إلى الماء والهواء . وليت الدول التى تعاني من عدم وجود قيادات مبدعة فى العديد من المجالات ليتها تقوم

بتطبيق تجارب الدول الأوربية التى ينتشر فيها الإبداع بحيث تكون تلك الدول صورة إلى حد كبير من الدول الأوربية . إن منطق الحياة منطق الوجود يفرض على المتأخر أن يلحق بالمتقدم وليس من المناسب إطلاقا أن نطلب من الدول الإبداعية المتقدمة أن تقلد المتأخر، هذا هو منطق الحياة . وبقينى أننا إذا انفتحنا على تجارب الآخرين الأكثر منا تقدما - فإن الطريق إلى الإبداع سيكون سهلا ميسرا . فالإبداع لا يبدأ من فراغ والإبداع إذا قصدنا به الأصالة بمعنى عدم التأثير بالسابقين فإننا لا نجد ذلك إطلاقا، أى لا نجد فينا أصيلا، ومن هنا فإن المنطق يفرض علينا الانفتاح والاستفادة من تجارب الآخرين، يفرض علينا وجود موجة مشتركة بيننا وبين الأمم التى نجد فيها الكثير من الجوانب الإبداعية، إذا لم نفعل ذلك فسيكون حالنا كحال من يتكلم على موجة غير الموجة التى يتحدث عليها الآخرون، نقضى على أنفسنا بأنفسنا لأننا سنتنفس هواء راكدا ساكنا وغير متجدد، إذا نظرنا إلى النظريات العملية الكبرى، وإلى النظريات الفلسفية التى غيرت من فكر الإنسان، فإننا سنجد أن هذه النظريات لم تحدث أثرها إلا لكونها جاءت مخالفة تماما لحالة السكون ، حالة الركود .

الإبداع إذن يرتبط ارتباطا مباشرا بالسعى نحو التنوير والإنطلاق نحو ثقافة العولة وهذا الارتباط يجعلنا نقول بأن عوامل عرقلة الإبداع فى العديد من المجالات - إن لم

فكر وإبداع

فإنه لا مفر من القول بأن مساحة الظلام فى المناهج الجامعية الحالية تعد أضعاف مساحة التنوير والتطوير. فإن مناهجنا الحالية تقوم على الحفظ والترديد والتلقين. والمقلد ينظر إلى أسفل، ولا ينظر إلى الأمام. ومن هنا فلا إبداع ولا مبدعون. المبدع له نظراته التقدمية، أما المقلد فإنه يحاول الصعود إلى الهاوية ولن نجد تقدما فى أى دولة من الدول إلا إذا وجد فيها عدد كبير من المبدعين فى كل المجالات من تعليم وثقافة وفكر بوجه عام.

كيف نتحدث عن الإبداع فى جامعاتنا فى الوقت الذى نجد فيه بعض المناهج تدور حول ما يسمى بالفكر الأصولي، هل يدخل هذا فى دائرة المعقول أم دائرة اللامعقول؟ نعم لابد من القضاء على كل فكر رجعى غير تقدمي. إن هذا الفكر سيؤدى بنا إلى الرجوع إلى الوراء الرجوع إلى الخلف باستمرار وإذا قيل وأين مكان التراث فى مناهجنا؟ فإننا نقول إننا يجب أن ننظر إلى التراث نظرة صحيحة موضوعية وكم من خرافات نجدها فى بعض كتب التراث! خرافات كثيرة وكثيرة. ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن كتب القدامى من أجدادنا فى مجالات كالطبيعة والكيمياء والفلك إنما تدور حول المحور الكيفي، والعلم الآن كم، وكم فقط. فهل يمكن أن ننتظر إبداعاً ونحن الآن نقوم بتفقيس كتب التراث. إن تدريس آلاف الكتب التراثية فى مجال العلم بفروعه لا يمكن أن يؤدى إلى تخريج طبيب أو عالم من علماء الطبيعة والفلك.

تكن كلها - ، إنما هى نفس عوامل عرقلة التنوير إلى حد كبير جداً.

فمن عوامل عرقلة الإبداع الفصل بين التعليم الدينى والتعليم المدنى. ويجب القضاء تماماً على هذا الفصل إذ كيف نقول بالمجتمع الواحد، وفى نفس الوقت نفصل بين تعليم وتعليم. ولا بد أن نضع فى اعتبارنا أن من عوامل تعويق الإبداع أن نطلب بترجمة كتب العلوم ومن بينها الطب وبحيث نقوم بتدريسها بالعربية. إن هذه العلوم قد تقدمت تقدماً مذهلاً فى أوروبا فكيف إذن يكون بالإمكان تدريس تلك العلوم بالعربية كيف سيتعامل المشتغل بتلك العلوم مع الكتب التى تصدر كل يوم وهى بلغات غير عربية .

الواقع أن نظام تعليمنا الحالى لا يؤدى إلى وجود تيارات مبدعة. إنه لا يضع فى اعتباره أن العالم يتغير من حولنا وما كان مفيداً فى الماضى يعد اليوم عديم الفائدة. لابد من ثورة جذرية فى مجال التعليم، إذ ليس من المناسب إطلاقاً أن نتغافل فى مناهجنا عن التطورات الحاسمة فى كل مجال من المجالات الفكرية والثقافية والعلمية. وما يقال عن التعليم فى المدارس، ينطبق على التعليم فى الجامعات، هل أدت المناهج الحالية إلى وجود قيادات مبدعة؟ الإجابة بالنفى بطبيعة الحال.

ومما يؤسف له أننا إذا كنا نتحدث عن الإبداع وعلاقته بالتنوير فى منظور العولة

فتح النوافذ على الفكر الأوربي الغربي.

ما أكثر العوامل التي تؤدي إلى عرقلة الإبداع، وما أكثر أوجه القضاء على معوقات الإبداع. والمهم في رأينا أن نحدد بصراحة وشجاعة تلك المعوقات، حتى يمكننا التصدي بحسم لها، فلا مشكلة بدون حل والإرادة الإنسانية إذا اتخذت من العلم والمعرفة والاستنارة سلاحا فإنها كفيلة بتحقيق مستقبل أفضل للبشرية. يزيد فيه عدد المبدعين في كل مجالات المعرفة الإنسانية وحتى يحقق الإنسان ذاته يؤكد على حقه في السلام والأمن والطمأنينة. ولكن هل سيتم ذلك في المستقبل القريب؟ .. أعتقد باننا إذا تأملنا بدقة في الأساليب أو الأسلحة التي تعتمد عليها قوى عرقلة الإبداع، والتقدم، فإن التأمل الموضوعي لابد وأن يؤدي بنا إلى القول إن الاعتقاد بأن تغييرا سيتم من أجل الإبداع، لن يتحقق على أحسن الفروض إلا في مستقبل بعيد وليس مستقبل قريب .

إن الطريق إلى أن تكون لنا إسهاماتنا لا يمكن أن نتصوره إلا بانفتاح على فكر الأمم الأخرى. لا أمل إذن إلا بالانفتاح على كل تيارات وثقافات العالم، انفتاح على كل تيارات الفكر الغربي، انفتاح على العلم والحضارة وكفانا تلك الدعوات التي تصدر عن أناس اعتبرهم من المتخلفين عقليا، وأقصد بهم أولئك الذين يصورون لنا أن من يقصد الغرب يجد ظلاما في ظلام. يصورون لنا العلم وكأنه شر مستطير، يصورون لنا الحضارة الأوربية وكأنها الفك المفترس الذي

إن العالم يتغير من حولنا وإذا لم ننظر إلى قضية الإبداع نظرة فورية وفي اليوم، وبحيث لا نقوم بتأجيلها إلى الغد فإن الغد سيكون متأخرا من خلال منظور معين، وهو أن العالم تسوده اليوم ثورة التغيير.

نقول ونكرر القول: إن تدعيم الإبداع لا يمكن أن يتحقق إلا إذا نظرنا إلى الإنسان نظرة جديدة، نظرنا نظرة شمولية إلى حقوق الإنسان، تلك الحقوق التي لا تقتصر على حقوق الحياة فقط بل حقه في السلام والتعليم والمعرفة بل ونظرنا إلى الإنسان أيضا بوصفه كائنا علميا، على أساس أن البحث العلمي نفسه يعد عملا إبداعيا نظرنا إلى تربية الإنسان على أساس أنها لابد أن تؤدي إلى غد أفضل من الحاضر.

وأعتقد أن هذه النظرة لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال رؤية تنويرية عالمية رؤية تلتفت في غضب إلى الماضي وتقول له، وداعا، إذ إن العصر غير العصر، ومطالب اليوم غير مطالب الأمس. رؤية تقبل جذور الظلام اقتلاعاً لأن تلك الجذور قد فرضت على الناس في الماضي دون إرادتهم أو طلب من جانبهم

هذه النظرة التنويرية تقوم أساسا على احترام حقوق الإنسان والدفاع عن حريته إذ لا يمكن تصور الإبداع وسط الأغلال أو القيود. فلنوفر المناخ أولا وبعد ذلك نبحث عن المبدعين في كل المجالات العلمية والفكرية بوجه عام. فلنسع بكل قوتنا نحو التنوير لأنه لا يمكن تصور إبداع بدون تنوير، يتمثل في

فكر وإبداع

التقدم والازدهار، بحيث يأخذ فكرنا العربى مكانه بين الفكر الغربى. فالفكر الغربى يتقدم تقدما سريعا أما الفكر العربى فقد أصبح فكرا متقوقعا فكرا محليا .

ويبدو لى - وقد وصلنا إلى تلك الحالة التى يرثى لها - أنه لا مفر من الاطلاع على الفكر الغربى بكل ما نملك من قوى وأدوات . كفاتنا - كما قلت - هجوما على العلم وعلى الحضارة فى أوروبا، إنه لمن لم مصائب الزمان أن يهاجم الفرد منا الحضارة والعلم من ميكرفون فى الوقت الذى يجب أن نعلم فيه أن الميكروفون ثمرة من ثمرات الحضارة، يهاجم الفرد منا العلم الأوروبى ثم يصارع لاستعمال السيارة. والسيارة تعد ثمرة من ثمرات العلم، ولو كان هذا الفرد الذى يهاجم العلم متسقا مع نفسه وصريحا مع نفسه لأستخدم الدواب فى تنقلاته، ولكنه للأسف الشديد يتناقض سلوكه مع أقواله. يهاجم الفرد منا العلم الأوروبى ويسود آلاف الصفحات يدفع بها إلى المطبعة والمطبعة أيضا تعد ثمرة من ثمرات الحضارة .

ومن هنا كان واجبا علينا وخاصة بعد أن وصلنا إلى تلك الحالة التى يرثى لها، أن نقوم بالاطلاع على فكر الغرب ونأخذ منه ما نأخذ دون خوف على شخصيتنا. فمن يؤمن بطريق النور والتنوير لا خوف عليه لأن هذا الطريق سيؤدى به إلى التقدم إلى الأمام .

إن تراث السلف إذا قصدنا بالسلف أجدادنا من المفكرين لا يعد كله صوابا ولا يعد كله خطأ. إن تراث السلف فى بعضه ما

يريد أن ينقض على تراثنا القديم.

كلا يأسادة ليس العلم الغربى ظلما، وليست الحضارة الأوربية شرا، ولكن الشر يأتى من الدعوات المغلقة. فالظلام يرتبط بضيق الأفق ومن يغلق عليه النوافذ لابد أن يصاب بضيق التنفس أو سيبتنفس هواء راكدا فاسدا.

اقول لابد أن نأخذ بأسباب العلم، والحضارة الآن بيد الغرب شئنا أم لم نشأ، الحضارة الآن تتمثل فى أوروبا أردنا أم لم نرد فيجب ان نستقيظ ونعرف تماما أننا إذا أردنا لنا فكرا إذا أردنا لنا اتجاها فلا مفر من الانفتاح على كل التيارات.

ثم بعد ذلك لنأخذ منها ما نأخذ ولنرفض منها ما نرفض، أما أن نهاجم لمجرد الهجوم أن نرفض لمجرد الرفض فإننى بصراحة اعتبر هذا سلوكا عدوانيا يعد أدنى مرتبة من سلوك الحيوانات المفترسة، ولنعترف بصراحة ولنكاشف أنفسنا على حقيقتها وسنرى أننا إذا فعلنا مستقبلا مثما نفعل حاليا فسوف نصل إلى حالة شديدة من التخلف. وإذا ادعينا أننا نصعد، فهو صعود إلى الهاوية.

لنعترف بصراحة أننا نمر الآن بحالة من الكسل العقلى. إننا نمر الآن بحالة من جمود الفكر وضيق الأفق. ونحن الآن أمام موقفين كما قلنا يجب علينا ان نختار موقفا منهما، أما أن نباعد بيننا وبين العقل والحضارة والعلم وهذا سيؤدى بنا إلى التخلف والانحيار والاضمحلال، أو أن نتمسك بأساليب العلم وجعل العقل هو المعيار وهذا سيؤدى بنا إلى

أصبحت الآن تراثا ماضيا وولى شأنه فلا يصح أن نقف عندها جامدين فلا بد من الانطلاق منها إلى الفكر العلمى الحديث، لأن المنهج الآن غير منهج الماضى. العلم الآن ليس فيه أى حديث عن الكيفيات بل العلم الآن كم وكف فقط. ومن يحشر فى كلامه العلمى أى قول عن الكيفيات فلا اشك لحظة واحدة فى انه لابد أن يكون هاريا من مستشفى الأمراض العقلية .

إن أوربا لم تتقدم إلا عن طريق السعى بكل قوتها وابتداء من عصر النهضة نحو تحقيق مبدأ التنوير بحيث وجدنا ثقافة أوربية جديدة تختلف فى أساسها ومنهجها عن ثقافة العصور الوسطى. لم تقل أوربا لنفسها أننا يجب أن نقف عند فلسفة فلاسفة الغرب فى العصور الوسطى. بل انها أمنت بالانطلاق نحن العقل، نحو الحضارة الحديثة، نحو التنوير، ولكن ماذا نقول وقد تحولت بعض مجلاتنا الفكرية إلى أبواب دعاية للظلام والرجعية والهجوم على التنوير لأسباب عديدة غير مقنعة .

إننى لا اتصور وجودا فكريا أفضل لأممتنا العربية إلا من خلال ثقافة العولة. إننا يجب أن نسعى إلى تلك الثقافة. وقد أن الأوان للاستفادة من قيم وإيجابيات ثقافة تعد أفضل بكثير من الثقافات الراكدة التى تسود عالمنا العربى حاليا. إنها ثقافة العولة .

يصلح لنا فى حياتنا الحاضرة. وفى بعضه الآخر ما يعد عائقا بيننا وبين التقدم، ولنأخذ فى اعتبارنا أننا لو قرأنا على سبيل المثال كل كتب أجدادنا فى مجال العلوم فلن تساعدنا تلك الكتب على أن .. نتوصل إلى أى مخترع من المخترعات الحديثة، وجربوا ما شئتم حتى تصدقوا ما أقول به الآن .. اجعلوا كتب الماضى هى الكتب المعتمدة والرئيسية فى كلية العلوم فى أى بلدة من البلدان العربية فإذا حدث، لن يكون فى إمكان خريجى تلك الكلية التوصل إلى أى شىء جديد لماذا؟ لأنهم وقفوا عند كتب التراث لأنهم تصوروا إن القديم لابد أن يعد شيئا عظيما مقدسا لمجرد انه قديم .

إننا أصبحنا كمن يبكى على الأطلال. إن تجاوز التراث والانطلاق إلى الحديث والمعاصرة يعد أمرا ضروريا. وقد قام أجدادنا بما استطاعوا القيام به فلنشكرهم على ما قاموا به. ولكن لا يصح أن نقف جامدين عند أقوالهم. إنهم أقاموا فكرهم العلمى وتصوراتهم المذهبية على أساس القول بالعناصر الأربعة التى قال بها القدماء وهى التراب والماء والهواء والنار... فهل عدد العناصر الآن أربعة كلا؟ أيها القراء..... العلم الآن غير العلم فى الماضى.. والمذاهب الفلسفية التى أقيمت على أساس النظام العلمى القديم أصبحت الآن فى خبر كان،